الفصل الأول

نشأة الفقيد والعصر الذي ظهر فيه

نشأته العائلية

ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة بحي (الصليبة) بقسم الخليفة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤م (أول رجب سنة ١٢٩١هـ) وهو ابن (علي أفندي محمد) أحد خيار المهندسين الضباط.

والد المترجم

نشأ (علي أفندي محمد) في بلدة «كتامة الغاب» من أعمال مركز طنطا عاصمة الغربية؛ إذ كان والده من تجارها، ودخل فيمن دخل من أبناء التجار مدرسة طره سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٥م)، ومكث بها خمس سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة (الخانكة) وبقي بها أربع سنوات كان فيها مثال الجد والاستقامة، وكان أول أقرانه. وفي سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) نال رتبة الملازم الثاني مهندسًا طوبجيًّا وعين معيدًا في المدرسة، ثم نقل إلى بلوكات المهندسين التي كانت تعمل في إقامة الكباري وبناء الثكنات في عهد محمد علي، ثم رقي إلى رتبة الملازم الأول في عهده أيضًا، وإلى رتبة اليوزباشي في عهد عباس باشا الأول، وعين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين.

وفي سنة ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) شيد منزلًا بحارة درب الميضأة بشارع شيخون، وهو الذي ولد فيه المترجم، وفي عهد سعيد عين ضمن أركن حرب معيته، ثم أحيل إلى الاستيداع في عهد إسماعيل، ثم عين مهندسًا ملكيًّا بوزارة الأشغال حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٢٩٤هـ[1] (١٨٧٧م) وقد أنجب من البنين سبعة، ومن البنات اثنتين، فأبناؤه هم: المرحوم محمد أفندي علي الذي كان صيدليًّا بطنطا، وتوفي سنة

(١) هذه البيانات عن كتاب «سيرة مصطفى كامل» تأليف علي فهمي بك، شقيق الفقيد.

١٢٢٠هـ (وهو والد الأستاذ أحمد زكي المستشار بمحكمة النقض فيما بعد)، ثم المرحوم سليمان أفندي علوي الذي تخرج من مدرسة الحقوق وعين بالمحاكم المختلطة، وتوفي في التاسعة والعشرين من عمره، ثم حسين بك (باشا) واصف وزير الأشغال الأسبق، ثم المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحي من نوابغ خريجي مدرسة الطب (وقد توفي سنة ١٨٩٤م)، وأنجب من السيدة «حفيظة» المرحوم علي بك فهمي كامل، ثم المترجم، ثم السيدة عائشة حرم المرحوم عثمان أفندي صبري (والد إبراهيم أفندي صبري من نوابغ خريجي كلية الحقوق سنة ١٩٣٧م وسفير الجمهورية العربية المتحدة في ألمانيا الغربية الآن)، ثم الأستاذ حسن حسني كامل - أمد الله في حياته- ثم المرحومة السيدة نفيسة، وهي آخر خلف له.

كان الفقيد ضابطًا ومهندسًا، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية؛ إذ كان في أواخر عهده بالحكومة مهندسًا ملكيًّا، وكان معروفًا بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والأخلاق الكريمة، وكان له من غير شك فضل كبير في ظهور مصطفى كامل؛ إذ كان يعنى بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة، فكان إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء إلى منزله لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة، فإذا شبَّ أرسله إلى الكتَّاب ليحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، ثم يدخله المدرسة، وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله في معظم الليالي ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة، ويعلمهم الصدق والإخلاص. كما كان يتفقد أحوالهم في المدرسة، هذا فضلًا عن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده؛ فعلي أفندي محمد له يد طولى في نشأة الفقيد وتربيته الحسنة، وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التي نشأها الفقيد.

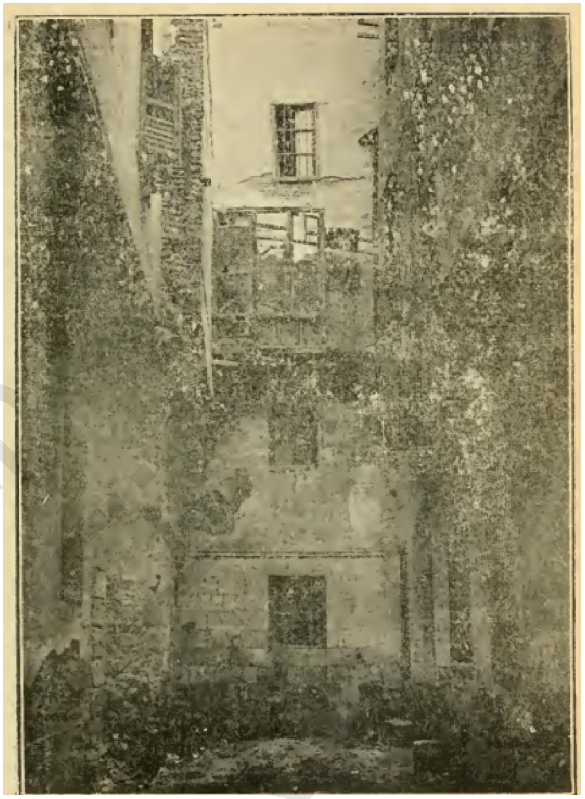

المنزل الذي ولد فيه الفقيد سنة ١٨٧٤
بدرب الميضة بشارع شيخون بالصليبة

والدة المترجم

وكذلك كان لوالدته السيدة حفيظة كريمة المرحوم اليوزباشي محمد أفندي فهمي فضل كبير في نشأته. وهي سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة (بشارع الكومي)، وكانت على جانب كبير من مكارم الأخلاق، وكان الفقيد يعزها ويجلها ويشيد بذكرها طول حياته، وحزن أشد الحزن على وفاتها سنة (١٩٠٧م)، وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير، والصبر

والجلد، مرضت بالقلب في آخر حياتها عدة أشهر، وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح، فهذا الصبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة.

نشأة الفقيد المدرسية

بدت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة في طفولته، وكان كثير الاهتمام بما يحدثه به أبوه من القصص على عادته مع أولاده، ويعي هذه القصص ويدركها تمام الإدراك وهو بعد لم يتجاوز الخامسة من عمره، وقد عهد أبوه وهو في هذه السن إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد السيد أن يعلمه في المنزل مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظه القرآن الكريم، ولما أتم السادسة أدخله مدرسة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصليبة، وهي القائمة إلى الآن، فهذه المدرسة تفخر بحق بأنها أول معهد علمي تخرج فيه نابغة مصر العظيم.

وبدا على مصطفى أول ما بدا في أول عهده بالحياة المدرسية تعلقه بعلم الحساب وميله إليه أكثر من ميله إلى أي علم آخر، ولا غرو فأبوه كان مهندسًا، فورث عنه الميل إلى العلوم الحسابية، وظهرت عليه أيضًا علائم الشمم والإباء والشجاعة؛ فمن ذلك أنه بعد أن مكث بمدرسة والدة عباس سنتين حدث أن تلميذًا معه في الفرقة سأله الأستاذ سؤالًا لم يجب عليه فأجاب بدلًا منه، فسبَّه الأستاذ وعاقبه بالحبس ساعتين، فعافت نفسه هذا الظلم، وطلب إلى أبيه أن يلحقه بمدرسة أخرى؛ لأنه لم يستطع أن يتحمل هذه الإهانة، فذهب والده في اليوم التالي وحقق الحادثة وتبين أن ابنه محق في شكواه، فأخرجه من المدرسة وأدخله مدرسة (السيدة زينب) الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف، وأكبَّ على الدرس في تلك المدرسة كما كان دأبه في مدرسة والدة عباس؛ إذ كان شديد الإقبال على الدرس والمذاكرة، وبدا منه الميل الكبير إلى دروس التاريخ، وظهر ذكاؤه الفائق واستعداده الكبير فصار أول أقرانه.

وفاة والده

أدركت والده الوفاة يوم ٢٣ جمادى الثانية عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) والفقيد في مدرسة السيدة زينب، فحزن لوفاته حزنًا شديدًا وأثر فيه الحزن تأثيرًا عميقًا، وقد كفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك (باشا) واصف (وزير الأشغال الأسبق) فطلب منه أن ينقله إلى مدرسة (القربية) لأنها أقرب إلى منزل جده لأمه الذي أقام فيه وإخوته، فأجابه أخوه إلى طلبه ونقله إليها.

حصوله على الشهادة الابتدائية

وفي هذه المدرسة تجلت في الفقيد مواهبه في الذكاء والعزيمة والجد والاجتهاد، فتفوق أيضًا على أقرانه بها، ونال شهادة الدراسة الابتدائية في احتفال فخم حضره الخديوي الأسبق توفيق باشا سنة (١٨٨٧م).

في المدرسة الثانوية

دخل المترجم المدرسة التجهيزية (الخديوية) سنة ١٨٨٧م، وكان من أساتذته فيها الدكتور محمود بك فوزي الحكيم، وأحمد بك كمال، وأحمد بك حمدي، وعثمان بك أنور، ومحمد بك إدريس، وإسماعيل أفندي فهمي، والدكتور محمد بك كامل الكفراوي وغيرهم، وقد ظل الفقيد على صفاته التي لازمته في التعليم الابتدائي من الجد والإكباب على الدرس والعمل، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس والصراحة في القول، وحسن الإلقاء؛ فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعًا، وكان موضع إعجابهم، وقد عرفه في ذلك الحين علي باشا مبارك -وكان وزيرًا للمعارف العمومية- فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته، وقال له مرة: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن سيكون عظيمًا، وأعجب به إعجابًا كبيرًا، وقابله يومًا في سراي الوزارة وشكى إليه حيف نظام الامتحان إذ أدى إلى رسوبه ورسوب زملائه، فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه

وحجته، فعدل عن هذا النظام؛ مما أدى إلى نجاح مصطفى وكثير من زملائه. وكان الفقيد على حداثة سنة موضع احترامه، فكان الوزير ينشطه ويدعوه إلى منزله ويناقشه في المسائل العلمية والاجتماعية ويقدمه إلى جلسائه من العلماء والكبراء، ويثني عليه أمامهم.

في مدرسة الحقوق

ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة (١٨٩١)، ودخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر من تلك السنة، ونجح في امتحان السنة الأولى، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية في أكتوبر سنة (١٨٩٢)، وجمع بين المدرستين، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز في نوفمبر سنة (١٨٩٤).

نشأته الأخلاقية

إنَّ الأخلاق هي مهد الوطنية وقوامها، فالأمم التي يتحصن أفرادها بالأخلاق هي التي تنمو فيها الوطنية وتتأصل في نفوس أبنائها، ولا غرو فالوطنية الصادقة لا تسكن إلا النفس المتحصنة بالأخلاق القويمة، ولقد كان مصطفى كامل زعيمًا أخلاقيًّا كما كان زعيمًا وطنيًّا، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الأخلاقية؛ لأنَّ الأخلاق أساس الوطنية الصادقة.

بدأت نشأته الأخلاقية في البيت من حسن تربية والده إياه، وقدوته الحسنة، ثم استمرت في المدرسة الابتدائية، ثم الثانوية والعالية، ودخل ميدان الجهاد الوطني متميزًا بالأخلاق التي اكتسبها طفلًا وتلميذًا وشابًّا، ولازمته طوال حياته.

وأبرز الجوانب في حياته الأخلاقية الصدق والإخلاص، وقوة العزيمة، والصراحة والشهامة، وعلو النفس. ولقد كانت هذه الأخلاق خير أساس لوطنيته، كما كانت عدته في الجهاد وسبيله إلى الفوز في أداء رسالته القومية.

ظهرت هذه الأخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية، ذكر المرحوم «الشيخ علي» صاحب المؤيد أنَّه دخل ذات ليلة على «علي باشا مبارك» في منزله أوائل سنة (١٨٩٠) وهو يومئذ وزير المعارف، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء، وإذا بمصطفى كامل -وكان وقتئذ تلميذًا بالمدرسة الثانوية- يجادل الباشا في أمره ويقول: «إنني لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذًا مثلي، وما يدريك ألا أكون عظيمًا أخدم وطني غدًا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم». قال هذا ثم خرج غاضبًا وكأنه ليس بتلميذ، وكأنما الباشا الذي يخاطبه ليس وزير المعارف العمومية. وبعدما خرج ابتسم الباشا وقال: «إنني أعجب بشجاعة هذا التلميذ، ويلذ لي أن يتكلم أمامي بمثل هذه الشجاعة النفسية، ولذلك لم أمره بما أمرت اليوم لأجله». وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل، وتركه يخاطبه بهذه اللهجة متلذذًا بما كان يعجبه من كلامه وجداله. قال الشيخ «علي يوسف»: «من اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكأنما عرفت رجلًا لا تلميذًا في المدرسة».

مصطفى كامل

في السابعة عشر من عمره

نشأته الوطنية (سنة ١٨٩٠م)

تدل الشواهد والبينات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد في المدرسة الثانوية، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه إلى العمل والجهاد في سبيل حرية مصر واستقلالها؛ بدأ يشعر وهو بعد في السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبًا نحو وطنه يجب أن يؤديه، ظهر هذا الشعور أول ما بَدَا وهو في المدرسة الخديوية؛ إذ أسس جمعية أدبية أسماها (جمعية الصليبة الأدبية) واختار لها أعضاء من بين أصدقائه في التلمذة ممن توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الأسبوعية في مدرسة الأمريكان، فكان المترجم يزورها ليتعرف إلى من فيها من الأفاضل والأدباء، فيحبب إليهم زيارة جمعيته. وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضوًا.

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة، فكان يقف في الجمعية خطيبًا مساء كل جمعة مرتجلًا ما تملي عليه البديهة من الخطب، وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد في هذه السن المبكرة، وأول خطبة ألقاها كانت في (فضل الجمعيات في العالم). وأخذ يراسل الصحف في ذلك الحين. ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطابه الذي أرسله إلى شقيقه «علي فهمي بك» في ١٢ يولية سنة ١٨٩١م لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية، واعتزامه دخول مدرسة الحقوق الخديوية؛ إذ يقول فيه مخاطبًا أخاه -الذي كان وقتئذ ضابطًا بالسودان-:

«السلام عليك أيها الأخ الحبيب، اليوم أبشرك أن العقبة الكئود التي أمامي - وهي شهادة الدراسة الثانوية- قد زالت من أمامي، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمي فأصبح نحيلًا؛ لا صحيحًا ولا عليلًا، ولكني أؤمل أن تعود إليَّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية، فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها؛ لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم، وأنت تعلم أن أميل إليها

كثيرًا، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها جمعية «إحياء الوطن». وربما دهشت من إقدامي هذا لضعفي الذي تعلمه في اللغة الفرنساوية؛ ولكن اعتمادي على الله وعلى نفسي أكبر ضامن لنجاحي، والله الموفق إلى أقوم سبيل».

نشرنا هذا الخطاب بالزنكوغراف (ص٣٩) لأنه أول رسالة بخط المترجمة[١] ولأنه أول وثيقة تلقي الضوء على نشأة مصطفى كامل الوطنية، فالكتاب مؤرخ في ١٢ يولية سنة ١٨٩١م، وهو يصف اتجاه المترجم إلى الانتظام في سلك مدرسة الحقوق «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم». وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذي كتب فيه الخطاب؛ بل هو وصف لشعور نفساني خالج المترجم منذ كان طالبًا بالمدرسة الثانوية.

وقبل أن يتخطى تلك العقبة الكئود، وقوله مخاطبًا أخاه: «وأنت تعلم أني أميل إليها كثيرًا» مشيرًا إلى مدرسة الحقوق، يدل على أن هذا الميل كان معروفًا عنه قبل كتابته هذا الجواب، واعتزامه تأسيس جمعية اختار لها اسم (إحياء الوطن) دليل آخر على شعوره بالعمل لإحياء الوطن، وأن هذا الشعور ليس وليد الساعة التي كتب فيها الخطاب؛ بل هو نتيجة تفكير طويل وشعور عميق اطمأنت نفسه إليه.

(١) نشرت صورته لأول مرة في كتاب «سيرة مصطفى كامل في أربعة وثلاثين ربيعًا» لعلي فهمي كامل بك.

خطاب الفقيد إلى شقيقه علي فهمي بك كامل
عقب حصوله على الشهادة الثانوية – ١٢ يوليه عام ١٨٩١

لذلك يمكننا أن نحد مبدأ نشأة الفقيد الوطنية بسنة (١٨٩٠م)، وهو أصح السنين لتأريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التي سطع نورها في أرجاء وادي النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدها.

ويبدو من هذا الخطاب ضوء آخر تجتلي به أخلاق الفقيد التي لها صلة وثيقة بوطنيته؛ فمن خلال سطوره وكلماته تلمع معاني العزيمة الماضية، التي كانت من أخص صفاته، فهو قد أجهد نفسه لينال شهادة الدراسة الثانوية حتى أصبح جسمه نحيلًا «لا صحيحًا ولا عليلًا». وهذا يدلك على مبلغ قوة إرادته، وتبدو صورة نفسه المتوثبة إلى عظائم الأمور من اعتزامه تأسيس جمعية لإحياء الوطن وهو منهك القوى من الجهد الذي بذله في الدرس والامتحان، فهذا الجهد الذي كان في حاجة إلى الراحة بعد العناء لم يصرف الفقيد عن متابعة الجهد والعمل لإحياء الوطن.

العصر الذي ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكمل دراسة شخصية المترجم دون أن ندرس العصر الذي ظهر فيه؛ لكي نتبين مبلغ تأثير العصر في شخصيته، وتأثير شخصيته في عصره.

قلنا: إنَّ ظهور مصطفى كامل في ميدان الجهاد الوطني قد بدأ سنة (١٨٩٠م)، فلنقف قليلًا لكي نصف حالة مصر السياسية في ذلك العصر.

مضى على الاحتلال البريطاني نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الأمة، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال البريطاني.

فالثورة العرابية بما انتهت إليه من الإخفاق والهزيمة سنة (١٨٨٢م) قد أثرت في حالة الأمة المعنوية تأثيرًا سيئًا؛ لأن إخفاق الثورات في ذاته يبعث اليأس في النفوس. هذا إلى أن الخاتمة التي انتهت بها الثورة وما أفضت إليه من الاحتلال هي مظهر بارز لخيبة الأمل في الثورات؛ إذ إن الثورة التي قامت في الأصل لإنالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية، ثم بفقدان الاستقلال الذي كانت تتمتع به من قبل، فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العرابية.

أضف إلى ذلك ما بدا من زعماء الثورة العرابية من ضعفٍ وتسليمٍ في ميدان الجهاد، وخضوع ومذلة بعد الهزيمة، وفي أثناء المحاكمة، وتنصلهم من تبعات الثورة التي اقتادوا زمامها، والتجاء معظمهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة، وما انتهى إليه أمرهم من النفي والنسيان، كل ذلك قد أدى إلى تسرب اليأس في النفوس، فنهاية الثورة العرابية كانت من أسباب انحلال المقاومة الأهلية في أوائل عهد الاحتلال البريطاني، فإن روح الخضوع والاستسلام قد تسربت من نفوس الزعماء إلى صفوف الأمة، فركنت إلى الإذعان، وظلت هذه الروح غالبة على

الأمة سنوات عديدة؛ إذ ليس من السهل أن تتخلص الأمم من أمثال هذه الحالة المعنوية، بل قد تمر عليها أجيال ثم أجيال وهي تراها حالة عادية لا غضاضة منها ولا غرابة فيها، حتى يظهر فيها الزعماء المخلصون ينفضون عنها غبار اليأس والذل، ويبعثون فيها روح الحياة والكرامة، فلا تتغير نفسية الأمة إلا بتأثير عوامل وشخصيات قوية تبعث فيها دمًا جديدًا قويًّا؛ من أجل ذلك قلنا في كتابنا عن «الثورة العرابية»: إن هزيمة الثورة العرابية لم تقتصر نتائجها على احتلال الإنجليز أرض مصر دون أية مقاومة تذكر؛ بل كان آثارها سريان روح الخضوع واليأس في نفوس المصريين، ومن هنا جاء الانحلال الوطني العام الذي أصاب البلاد عقب إخماد الثورة العرابية وبقي مخيمًا عليها نحو عشر سنوات، ولا غرابة في ذلك؛ فإن البلاد التي تشهد خيبة الأمل في ثورتها القومية، مثلما رأته مصر من الثورة العرابية، تبقى تحت تأثير اليأس والقنوط إلى أن يقيض لها الله زعامة جديدة، تسلك بها سبيل الجهاد من جديد، وهذا هو فضل مصطفى كامل في جهاده، فلقد ظهر في وقت كان اليأس مستحوذًا على النفوس، فبعث في الأمة روحًا جديدة، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشؤها؛ لا ممثلها ونائبها. وفرق بين الزعيم الذي يخلق حركة من العدم، ويستبدل من اليأس أملًا، ومن الجمود حياة وجهادًا، وبين الزعيم الذي تدفعه الحركة الوطنية وتخلقه خلقًا جديدًا، ولا يكون له من العمل إلا أن يمثلها أو يستغلها.

لم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام؛ بل اجتمعت إليه تلك الحوادث التي تعاقبت على البلاد في السنوات العشر الأولى من الاحتلال، فكانت أيضًا من بواعث القنوط وانقطاع الأمل.

في هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الإنجليزية، ونقضها مواعيدها في الجلاء، شهدت جمود الدول الأوربية إزاء المسألة المصرية، وتركها إنجلترا تعبث ما تشاء باستقلال مصر وحقوقها، شهدت تهدم صرح الإمبراطورية المصرية

الواسعة الأرجاء التي أسستها في السودان، ورأت الكوارث والهزائم تصيب جيشها في أصقاعه، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد أخرى في أيدي الثوار، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطاني العام، شهدت إلغاء الجيش المصري، وتأليف جيش جديد هزيل، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين، شهدت النفوذ البريطاني يتغلغل في شئون الحكومة كافة، من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية، شهدت إلغاء الدستور الذي نالته سنة (١٨٨٢م) وتأليف هيئة شورية لا حول لها ولا قوة، شهدت نوعًا من الحماية مضروبًا على مصر، دون أن تعرف له أساسًا ولا حدودًا، ولا قواعد ولا وقتًا محدودًا، ثم شهدت فوق ذلك استسلام رجالات مصر لإرادة العميد البريطاني، وتقرب أكثرهم إليه، والتماسهم الزلفى لديه.

كان الخديوي توفيق باشا يتولى مسند الخديوية، مذعنًا للسيطرة البريطانية، لا يرد للعميد الإنجليزي (اللورد كرومر) طلبًا، وقد أضفى على الأداة الحكومية روح الاستسلام لإرادة الإنجليز، واللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهي في شئون الحكومة، يتدخل في كل وزارة بواسطة الموظفين الإنجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة؛ فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش، والبوليس تحت إمرة المفتش البريطاني العام، والمالية في يد المستشار المالي، والأشغال في يد وكيل الوزارة البريطاني، والحقانية منذ (١٨٩١م) في يد المستشار القضائي، وكان يتولى الوزارة في ذلك الحين (سنة ١٨٩٠م) رياض باشا، وفي عهده استمر النفوذ البريطاني يتغلغل في دوائر الحكومة، ثم استقال في مايو سنة (١٨٩١م)، وخلفه في رياسة الوزارة مصطفى فهمي باشا، وهو أكثر الوزراء خضوعًا للاحتلال الإنجليزي واستسلامًا له. وليس في البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة؛ بل كان بها ذلك المجلس المعروف بـ«مجلس شورى القوانين»، ولم يكن يسمع له صوت في الشئون العامة. والصحافة إمَّا موالية للحكومة، أو ضعيفة فاترة بإزاء السيطرة البريطانية. وجمهرة

الأمة تحت تأثير هزيمة الثورة العرابية وخضوع الحكومة للسياسة الإنجليزية منصرفة عن الكفاح والجهاد.

وكان الرجال البارزون في مصر إمَّا منزوين في دواوين الحكومة، متربعين في المنصب، وبعضهم أعوان الغاصب، وإمَّا منصرفين لأعمالهم الخاصة في المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة، والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها قد انصرفوا عنها، وحلَّ اليأس في نفوسهم، والذين لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين بالروح العامة التي خيمت على البلاد؛ روح الخضوع والاستسلام. ويكفيك لكي تتمثل صورة من الروح العامة للطبقة الممتازة من المجتمع أن تذكر أن المغفور له «سعد باشا زغلول» (الذي تولى قيادة الحركة الوطنية سنة ١٩١٩م) كان وقتئذ المحامي النابه (سعد أفندي زغلول)، ومع أنه كان منصرفًا للمحاماة ولم يضطلع بعد بأعباء الجهاد القومي، فإنه آثر المنصب الحكومي على الحياة الحرة، فعين سنة (١٨٩٢م) قاضيًا (مستشارًا) بمحكمة الاستئناف، وأقر لزملائه المحامين في حفلة تكريمهم إياه أنه اختار القضاء «ليستريح بعد العناء»[1]. ففي الوقت الذي ضرب فيه اليأس رواقه على الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة وعلى الأمة عامة، بدأ «مصطفى كامل» حياة العناء والجهاد في سبيل مصر واستقلالها. من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم؛ إذ أنشأ الحركة الوطنية في عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود، وتظاهرت أسباب الضعف والخذلان.

والآن يجدر بنا أن نتساءل: من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية في عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط؟ وكيف نهض وحده وهو في هذه السن المبكرة؛ إذ كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره؟

لم يقل أحد: إن أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذي غرس في نفسه عقيدة الوطنية؛ لأن (علي أفندي محمد) لم يكن فذًّا في الآباء؛ بل كان كغيره من خيار

(١) «المؤيد» عدد ٢٩ يونية سنة (١٨٩٢م).

الرجال الذين لم يكونوا يعنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية، ولم يكن في المدارس كذلك دروس في الوطنية يتلقاها تلاميذها، كما أن العصر الذي ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعدًّا لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة. وإذا قلنا: إن أخلاق مصطفى كامل هي التي أوحت إليه العقيدة الوطنية، فإن كثيرًا من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل أخلاقه الفاضلة، ومع ذلك لم ينشأوا على غراره في العقيدة الوطنية، وإذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعبث باستقلالها ويتغلغل في شئونها، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية في نفوس المصريين، فإن هذه المصائب لم تحرك في نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى؛ بل إن المصائب كان لها تأثير عكسي في ذلك العصر؛ إذ بعثت اليأس في النفوس، وجنحت بالأمة للاستسلام، هذا أن فريقًا من المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن، ويعدها قوم من الفوائد والحسنات.

ففي الحق أنه لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبسٌ من نور العبقرية، فالعبقرية هي مصدر هذه النشأة، وقوامها قوة الإرادة والإيمان، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعاب وتأتي بالمعجزات، وهذا هو سر العبقرية، لا تجد له تعليلًا دقيقًا، فإذا عللته بتأثير البيئة الوراثية كما يقولون، اعترضك في هذا أن العبقري قد ينشأ وغيره من الناس في بيئة واحدة، ومن أبٍ واحد، وأمٍّ واحدة، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوانه، فنشئة مصطفى كامل الوطنية، ثم حياته الوطنية، هي قبسٌ من عبقريته، وقد اتجهت هذه العبقرية إلى إحياء الوطن وبعث الحركة القومية من مرقدها، ومن مداد هذه العبقرية خط التاريخ دورًا عظيمًا من أدوارها، ولقد كان مصطفى منشئ هذا الدور؛ إذ نفخ في الأمة من روحه، في وقت كانت الملابسات والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعدها عن النجاح، وكانت موضع الزراية والاستخفاف من سواد الأمة؛ بل من الطبقة الممتازة في المجتمع، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل «مصطفى كامل» في بعثه الحركة الوطنية.